



**HAL**  
open science

, Allaoua Amara

► **To cite this version:**

, Allaoua Amara. . Revue des lettres et sciences humaines, 2004, 2 (2), pp.31-76. <10.37138/jarh.v2i4.2795>. <hal-04081869>

**HAL Id: hal-04081869**

**<https://hal.science/hal-04081869>**

Submitted on 26 Apr 2023

HAL is a multi-disciplinary open access archive for the deposit and dissemination of scientific research documents, whether they are published or not. The documents may come from teaching and research institutions in France or abroad, or from public or private research centers.

L'archive ouverte pluridisciplinaire HAL, est destinée au dépôt et à la diffusion de documents scientifiques de niveau recherche, publiés ou non, émanant des établissements d'enseignement et de recherche français ou étrangers, des laboratoires publics ou privés.



Distributed under a Creative Commons Attribution - NonCommercial - ShareAlike 4.0 International License

# مجلة الآداب و العلوم الإنسانية

دورية علمية تصدرها كلية الآداب والعلوم الإنسانية  
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة

العدد الرابع / رمضان 1425 / أكتوبر 2004

ردمد: ISSN: 1112 - 4628

## الهجرة الهلالية و إشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط: قراءة في نقاش تاريخي

د. علاوة عمارة

كلية الآداب و العلوم الإنسانية

جامعة الأمير عبد القادر — قسنطينة

إن فكرة انحطاط الحضارة الإسلامية ليست بالجديدة، فقد تطرق إليها العلامة ابن خلدون في كتابه العمران و لاحظ ما أصاب العالم الإسلامي بعد تراجع العصبية العربية و وصول القيادات القبلية الممثلة في الأتراك و البربر إلى قيادة الأمة الإسلامية. غير أن الفكر الخلدوني ظل في أكثر الأحيان في طي النسيان و هو ما يجعله يقترب من سوسيولوجية الفشل ' (La sociologie de l'échec) بالنسبة لعصره. فباستثناء بعض الأسماء القليلة كالمقريزي (ت 845 هـ/1141) <sup>1</sup> و ابن الأزرق الأندلسي (ت 1491/896) <sup>2</sup> و المقصري التلمساني (ت 1040/

<sup>1</sup> نلمح التأثير الخلدوني في كتابات المقريزي و على الخصوص في رسالة إغاثة الأمة بكشف الغمة، تح سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، دار الهلال، 1990.

<sup>2</sup> في كتابه بدائع السلك في طبائع الملك، تح محمد بن عبد الكريم الجزائري، تونس، الدار العربية للكتاب،

(1631)<sup>1</sup> لا نكاد نجد تفاعل إيجابي مع الطرح الخلدوني المعالج لمختلف جوانب الحضارة الإسلامية و على الخصوص قضية الاضمحلال و السقوط في إطار الدورة الحضارية.

مستغلا ازدهاره الاقتصادي و تفوقه الفكري، قام الغرب المسيحي بالتطرق إلى أسباب انحطاط العالم الإسلامي من خلال بعض الإشارات التي ترجع إلى السنوات الأولى لعصر التنوير الفرنسي (Epoque des Lumières). و أول إشارة لهذا الانحطاط نجدها في الرسالة التي بعث بها الطبيب فرانسوا بارنيي (François Bernier) إلى كولبار (Colbert) الذي كان وزيرا للملك لويس الرابع عشر (Louis XIV). في هذه الرسالة تحدث هذا الطبيب الذي كان في خدمة الحكام الصفويين عن أسباب سقوط حضارة الإسلام الآسيوي و أرجعها إلى احتكار الحكام للأراضي الفلاحية مما أدى بالعمامة إلى السقوط في الفقر المدقع. هذه الإلتفاتة حظيت باعتراف مفكري الغرب الذين عكفوا على دراسة ظاهرة سقوط الحضارات القديمة و على الخصوص الإسلامية منها<sup>2</sup>. ففي رواياته المعنونة بالرسائل الفارسية (*Lettres persanes*) لمح منتسكيو (Montesquieu, 1755) إلى الأزمة التي كان يعاني منها العالم الإسلامي و أرجعها إلى أسباب تاريخية مرتبطة بالعلاقة بين الحاكم و المحكوم<sup>3</sup>. دائما في فرنسا "اللويس الرابع عشرية" نجد المفكر والمؤرخ فولتير (Voltaire) يكتب عن تاريخ العرب و الأتراك و يتطرق إلى انحطاط عالم

<sup>1</sup> أنظر نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح احسان عيسى، بيروت، دار صادر، 1988

<sup>2</sup> Cf. Henri-Irénée Marrou, *De la connaissance historique*, Paris, Editions du Seuil, 1954, p. 182-184.

<sup>3</sup> Cf. Montesquieu, *Lettres persanes*, rééd. Paris, Maxi-Poche, 2002.

الإسلام في كتابه *Essai sur les Mœurs*. بعد ذلك نجد أن الاهتمام بما آل إليه وضع العالم الإسلامي توسع إلى مختلف بقاع العالم العربي مثل ما نجده في كتابات كل من يوهان هردر (Johann G. Herder, m. 1803), كريستيو فوليني (Christian Volney, m. 1820) و غستاف لو بون (Gustave Le Bon). هذا الأخير كتب دراسة حول حضارة العرب (*La civilisation des Arabes*) و جعل من أحد فصوله محورا حول ما أسماه بأقول حضارة العرب<sup>1</sup>.

في الفترة المعاصرة ازداد عدد الدراسات الغربية حول العالم الإسلامي من خلال الإنتاج التاريخي للمستشرقين خلال القرنين السابقين، و ما تبعه من دراسة شاملة لتاريخ العالم الإسلامي بمختلف حقبة الزمنية. فكان الإجماع بين مختلف تيارات الاستشراق<sup>2</sup> الكلاسيكي و المعاصر أن الفترة الزمنية التي تمثل مرحلة التحولات الكبرى لحضارة الإسلام هي القرن الحادي عشر الميلادي، وهي التي ستؤدي إلى انحطاط عام لها في القرون الموالية. ففي كتابه *النهضة الإسلامية (El Renacimiento musulmán)* تطرق أنجلو قرلي (Angelo Ghirelli) إلى هذا الانحطاط و حدده بالقرن الحادي عشر قبل حديثه عن الحركات الإصلاحية الحديثة

<sup>1</sup> Gustave Le Bon, *La civilisation des Arabes*, rééd. Paris, Le Sycomore, 1980, p. 463-495.

<sup>2</sup> مصطلح الإستشراق (orientalisme) استعمل لأول مرة سنة 1799 في المجلة الموسوعية (*Magazine encyclopédique*) و اعترفت به الأكاديمية الفرنسية سنة 1835. ميلاد هذا الاسم يدل على مدى تطور الاهتمام بالثقافات الشرقية موازاة مع تفاقم الظاهرة الإستعمارية. أنظر

Marcel Boisard, *L'humanisme de l'Islam*, Paris, Unesco, 1985 ; Saïd Edward. *L'orientalisme : l'Orient créé par l'Occident*, Paris, Seuil, 1980 ; Maxime Rodinson, *La fascination de l'Islam*, Paris, La Découverte, 1989 ; Rabah Saddek, « L'Islam dans l'orientalisme français » dans *al-Mun'af*, 14, (1988), p. 1-22.

التي ظهرت في العالم الإسلامي<sup>1</sup>. هذه النظرة أخذت طابع العنصرية و الإسقاطات الحديثة في كثير من الكتابات الغربية و هو ما نلاحظه في الكتاب الذي تركه لنا الوزير الأول لسلطنة مسقط و عمان، الإنجليزي برترام طوماس (Bertram Thomas) حيث كتب:

"العرب كانوا شعب ليس لديه ذوق النظام و غير قادر على التسيير و حفظ الاستقرار. التوسعات العجمية التي حدثت في القرنين السابع و الثامن الميلاديين و التي أدت إلى احتلال محيط جغرافي شاسع كمثلها الروماني لوحقت في الحال بفترة اضمحلال سريعة تقريبا مثلها... العرب لم يعرفوا أبدا السلم، فلأنهم عاشوا بالسيف فأنهم ماتوا بواسطته"<sup>2</sup>.

فكرة اضمحلال الحضارة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي تبنتها أغلب دوائر الاستشراق الأنجلوسكسوني و هو ما نلمحه في كتاب العرب في التاريخ (The Arab in History) لمؤلفه برنارد لويس (Bernard Lewis) و الذي صدر عام 1954، حيث كتب فصلا عن ما أسماه بالعرب في طور الاضمحلال و أرجع هذه الوضعية إلى تراكم عدة عوامل و هي ضعف نظام الخلافة و تراجع الأنشطة التجارية و الفلاحية بسبب عدم قدرة النظام الإداري على التسيير

<sup>1</sup> Angelo Ghirelli, *El Renacimiento musulmán*, Berceña, Montaner y Simón S. A., 1948, p. 24-27.

<sup>2</sup> Bertram Thomas, *Les Arabes*, trad. de l'anglais, Roland Huret, Paris, Payot, 1946.

الاقتصادي و النفقات الكبرى لأنظمة الحكم. ضعف حضارة الإسلام يضيف هذا المؤرخ ظهر جليا من خلال سلسلة من المحجمات الخارجية و الداخلية مثلها على الخصوص كل من الإفرنج و عرب بني هلال<sup>1</sup>.

عالم الاستشراق الفرنسي و الغربي تبنى هذا الطرح في المؤتمر الشهير الذي عقد في مدينة بوردو (Bordeaux) الفرنسية من 25 إلى 29 جوان 1956 والذي حمل عنوانا مثيرا: " كلاسيكية و اضمحلال ثقافي في تاريخ الإسلام ". و من أهم المداخلات التي سجلت في هذا الملتقى نجد على الخصوص إشكالية الملتقى التي قدمها روبرت برونشفيك (Robert Brunschvig) ، أحد أكبر المختصين الفرنسيين في التاريخ السياسي و الديني للمغرب الإسلامي، و التي تركزت حول مفاهيم الاضمحلال و السقوط<sup>2</sup>. المداخلة التي ألقاها المؤرخ الفرنسي كلود كهان (Claude Cahen) تعتبر من أهم ما قدم في المؤتمر نظرا لشهرة صاحبها من جهة و تخصصه في التاريخ الاقتصادي للإسلام من جهة ثانية. كلود كهان ركز على العوامل الاقتصادية و الاجتماعية فيما أسماه بالأقول الثقافي للإسلام، لأن حسب رأيه أن المناطق الأكثر غنى من الناحية الاقتصادية هي التي تركزت بها المراكز الثقافية على غرار فارس و بلاد الرافدين و مصر. ابتداء من القرن الحادي عشر

<sup>1</sup> Bernard Lewis. *The Arab in History*, London, Hutchinson's University Library, 1954, p. 144-164.

<sup>2</sup> Robert Brunschvig, « Problème de la décadence » dans *Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'islam, Actes du symposium international d'histoire et de civilisation musulmane*, Bordeaux (25-29 juin 1956), éd. Paris, Maisonneuve et Larose, 1977, p. 29-46.

الميلادي، عرف العالم الإسلامي تحولات عميقة نتج عنها ضعف ثم انهيار في القرن الرابع عشر الميلادي. كلود كهان يضيف إلى العوامل الاقتصادية عوامل أخرى مثل التفكك اللغوي و النزاعات السياسية و الصراعات الاجتماعية و هي التي نتج عنها أفول حضارة الإسلام<sup>1</sup>.

هذا الطرح الاستشراقي تبناه بعض المؤرخين العرب المتكولين بالجامعات الغربية و على الخصوص المسيحيين منهم كفليب حتي الذي أرجع " أفول نجم العروبة في الشرق و الغرب" الذي حدث ابتداء من القرن الرابع الهجري إلى الخراج المرهق و إلى عدم تمازج العرب مع القوميات الأخرى التي دخلت في الإسلام<sup>2</sup>.

إشكالية أفول حضارة الإسلام لم تكن حكرا على الدوائر الغربية، فهناك الكثير من المفكرين و المصلحين المسلمين ممن تطرق إليها ابتداء من القرن السابع عشر. من بين المحاولات البارزة نجد على الخصوص مجهودات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت 1792) الذي أرجع سبب تخلف المسلمين إلى تخليهم عن عقيدة السلف الصالح. بعده تقريبا بقرن جاء المصلح جمال الدين الأفغاني (ت 1897) الذي رأى في الاستعمار الغربي العامل الرئيسي لتخلف العالم الإسلامي و الذي لا سبيل للنهوض إلا بطرده. بعدها تعددت الكتابات و الآراء حول سبل نهوض المسلمين لكن في غالب الأحيان بعيدا عن التساؤلات المطروحة في الدوائر الغربية.

<sup>1</sup> Claude Cahen, « Les facteurs économiques et sociaux dans l'anxiété culturelle de l'islam » dans *Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'islam*, Ibid, p. 195-207.

<sup>2</sup> فليب حتي، العرب — تاريخ موجز، بيروت، دار العلم للملايين، 1954، ص 190.



و من بين العديد من الكتابات نقل ما كتبه أبو الحسن الندوي في كتابه "ماذا خسر العالم بالخطاط المسلمين":

" قال أحد الأدباء: أمران لا يحدد لهما وقت بدقة، النوم في حياة الفرد، و الخطاط في حياة الأمة، فلا يشعر بهما إلا إذا غلبا و استويا. انه لحق في قضية أكثر الأمم، و لكن بدأ التبدل و الخطاط في حياة الأمة الإسلامية أوضح منه في حياة الأمم الأخرى، ولو أن نضع إصبعنا على الحد الفاصل بين الكمال و الزوال لوضعنا على ذلك الخط التاريخي الذي يفصل بين الخلافة الراشدة و الملوكية العربية أو ملوكية المسلمين<sup>1</sup>."

هذا النص حتى و إن استخرج من كتاب غير أكاديمي فانه معبر عن نوعية الطرح العربي الإسلامي حول مسألة الخطاط. فكتاب الندوي المتشر بقوة بالخصوص في الأوساط الدينية من خلال أزيد من خمسة عشر طبعة عربية يصور لنا النظرة المسلمة لأسباب انحطاط العالم الإسلامي و التي ترجعها إلى أسباب سياسية متعلقة بانتقال الخلافة من شورية راشدة إلى ملك وراثي<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بالخطاط المسلمين، القاهرة، دار القلم للنشر و التوزيع، 2000 ، ط 15 ، ص 129 .  
<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 129-139 .

بطبيعة الحال، اجتناب الحديث عن تحقيب زمني (La périodisation) لظاهرة اجتماعية أو إعطاء تصور عام لبلورتها لا تغطي بإجماع المؤرخين نظرا لاختلاف تصورهم لمفهوم التاريخ و الغاية من دراسته. فمثلا في العالم العربي نجد على سبيل المثال طريف الخالدي يرفض فكرة الحكم على فترات ما من تاريخ الفكر بالازدهار و على أخرى بالانحطاط نظرا لارتباطها بالفترات السابقة واللاحقة و بمختلف التحولات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية<sup>1</sup>. هذه النظرة رغم سلامتها قامت بسلب التاريخ من إحدى مقارباته و حاولت حصر المؤرخ في هدفه الذي سطرته أغلب الفلسفات التاريخية و هو الفهم دون الحكم. لكن هذا لم يمنع كما رأينا بعض المؤرخين من إصدار أحكام و تحديد القرن الحادي عشر الميلادي كفترة التحولات العميقة التي حدثت في العالم الإسلامي و التي أدت إلى انحطاط الحضارة الإسلامية باستعمال عدة مصطلحات للتعبير عن ذلك (ankylose, déclin, décadence). أما فيما يخص بلاد المغرب الوسيط، قامت المدرسة الاستشراقية الفرنسية منها على الخصوص بتحميل القبائل الحلالية مسؤولية تخريب النسيج العمراني و الاجتماعي.

### الإستشراق الفرنسي و تاريخ المغرب الوسيط

قراءة الكتابات الفرنسية حول تاريخ المغرب تسمح لنا برسم الخيوط الرئيسية للنظرة الاستعمارية لتفسير مختلف الحقب التاريخية لتاريخ بلاد المغرب:

<sup>1</sup> طريف الخالدي، بحث في مفهوم التاريخ و منهجه، بيروت، دار الطليعة، 1982، ص 80-81.

قامت الحضارة القرطاجية بتخصيب الأرضية الليبية البربرية، و قام الوجود الروماني بإدماج بلاد المغرب في فلك الحضارة الغربية قبل أن تفل و تظلم مع الفتح العربي و تربط بالدورة التاريخية الشرقية. الاحتلال العربي الذي تم على مرحلتين ( الفتح العربي في القرن السابع و المهجرة الهلالية في القرن الحادي عشر) قام بطرد البربر السكان الأصليين الذين لا يمكنهم استرجاع أراضيهم إلا مع الوجود الفرنسي و بالتالي العودة إلى فلك الحضارة الغربية المتنورة.

الكتابات التاريخية ركزت على المهجرة الهلالية و دورها في تخريب بلاد المغرب، كما صورت لنا ذلك البربري المستقر في مواجهة الرحل العرب، و أول من قام بنشر هذه الأفكار العنصرية نجد على الخصوص أرست مرسي (Ernest Mercier) في كتابه الأول الصادر عام 1875 " تاريخ استقرار العرب بإفريقيا الساحلية من خلال وثائق المؤلفين العرب و على الخصوص تاريخ البربر لابن خلدون"<sup>1</sup>؛ أما فيما يخص الكتاب الثاني فقد طبع سنة 1888 بعنوان " تاريخ

<sup>1</sup> Ernest Mercier, *Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale selon les documents fournis par les auteurs arabes et notamment par l'Histoire des Berbères d'Ibn Khaldoun*, Constantine, L. Marie Librairie édition, 1875, 406 p.

إفريقيا الساحلية من الأزمنة البعيدة إلى الفتح الفرنسي<sup>1</sup>. هذه النظرة المعادية للعرب تجلت في جل الدراسات الفرنسية حول تاريخ المغرب الوسيط التي كتبت في بداية القرن العشرين. ففي كتابه " قلعة بني حماد، عاصمة بربرية لإفريقيا الشمالية في القرن الحادي عشر" تطرق الجنرال دوباييلي (Le Général de Beylié) إلى الهجرة الهلالية و حملها مسؤولية أفول حضارة القلعة الحمادية<sup>2</sup>.

بعد كتابات الجيل الأول من المستشرقين الاستعماريين حول ماضي المغرب ظهرت مجموعة أخرى وسعت من مجالات البحث التاريخي و مصادره من خلال استغلال المصادر الثرية و الوصفية و الفقهية و هو ما ساهم في محاولة إعطاء صورة عامة عن تاريخ المغرب الوسيط و توظيفه في قالب إيديولوجي موال للاستعمار، و لهذا ظهرت مجموعة من الدراسات التي تحمل العرب مسؤولية التخلف الذي تعيشه "بلاد البربر" (La Berbérie) و الداعية إلى إعادة النظر في "الحقوق المسلوقة" للبربر بسبب "المحجة المشرقية". فقد قام جورج مارساي (Georges Marçais) المتمني لأكثر عائلة فرنسية مهتمة بكتابة تاريخ المغرب والأستاذ السابق بمدرسة قسنطينة، بتحضير رسالة دكتوراه حول "العرب في بلاد البربر من القرن الحادي عشر إلى الرابع عشر"<sup>3</sup> و هي الدراسة التي حاولت رسم

<sup>1</sup> Ernest Mercier, *Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830)*, Paris, Ernest Leroux, 1888, vol. II, 477 p.

<sup>2</sup> Le général de Beylié, *La Kalaa des Beni-Hammad. une capitale berbère de l'Afrique du Nord au XI<sup>e</sup> siècle*, Paris, Ernest Leroux, 1909, p. 9.

<sup>3</sup> عنده الأخرى نشرت في سنة 1913. أنظر:

Georges Marçais, *Les Arabes en Berbérie du XI<sup>e</sup> au XII<sup>e</sup> siècle*, Constantine, Paris, Ernest Leroux, 1913, 2 vol. 769 p.

خريطة للقبائل الهلالية التي استقرت ببلاد المغرب ابتداء من منتصف القرن الحادي عشر. بالرغم من الطابع الوصفي لهذه الدراسة فإن جورج مارسى ما لبث أن أصدر أحكاما قاسية عن القبائل الهلالية و أتهم إياها بتخريب حضارة المغرب، وهي الأحكام التي أعلنها صراحة في العديد من كتاباته و على الخصوص " بلاد البربر الإسلامي و الشرق في العصر الوسيط ". في هذا الكتاب الأخير رتب مارسى ما أسماه نتائج الحملة الهلالية وهي إشاعة الفوضى بإفريقية، و تعريب المنطقة، وإدخال البداوة إليها، و اغتصاب أراضي بربر زناتة و هذا ما أدى ببلاد المغرب من الدخول في طور جديد تميز بالانحطاط.<sup>1</sup>

مع اميل فليكس غوتيي (Emile Félix Gautier) ظهرت نوع من الكتابات العنصرية من خلال اتهام العرب بتحطيم حضارة المغرب الموروثة عن الرومان و البيزنطيين و تشبيه الحركة الهلالية بمهجرة الشعوب المتبربرة المحطمة لحضارة روما. ففي كتابه " أسلمة افريقيا الشمالية، القرون المظلمة للمغرب " كرر عدد من أقوال ابن خلدون حول " همجية العرب " ووظفها في قالب إيديولوجي استعماري و من هذه المقولات المكررة<sup>2</sup>:

" إن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب  
والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد  
التوحش و أسبابه فيهم فصار لهم خلقا و جبلة و كان

<sup>1</sup> Georges Marçais, *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age*, 1927, rééd. Casablanca, Editions Afrique Orient, 1991, p. 193-228.

<sup>2</sup> Emile Félix Gautier, *L'islamisation de l'Afrique du Nord : les siècles obscurs du Maghreb*, Paris, Payot, 1927, p. 389.

عندهم ملذوذًا لما فيه من الخروج عن ريقه الحكم و عدم الانقياد للسياسة و هذه الطبيعة منافية لل عمران و مناقضة له فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة و التغلب و ذلك مناقض للسكون الذي به العمران و مناف له فالهجر مثلا إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافي للقدر فينقلونه من المباني و يخربونها عليه و يعدونه لذلك... و افريقية و المغرب لما حاز إليها بنو هلال و بنو سليم منذ أول المائة الخامسة و تمرسوا بها لثلاثمائة و خمسين من السنين قد لحق بها و عادت بسائطه خرابا كلها بعد أن كان ما بين السودان و البحر الرومي كله عمرانًا تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم و تماثيل البناء و شواهد القرى و المداشر<sup>1</sup>.

ربط الهجرة الهلالية بأكبر الحركات المحطمة لحضارات العالم تبنته الكثير من الدراسات كما نلمحه في كتاب " الشعوب المتبريرة من الغزوات الكبرى إلى الفتوحات التركية في القرن الحادي عشر" لمؤلفه لويس هلفن (Louis Halphen) الذي أرجع تخريب بلاد المغرب المزدهرة حسب رأيه إلى العرب الهلاليين<sup>2</sup>. اتهام

<sup>1</sup> ابن خلدون، المقدمة، بيروت، مؤسسة جمال للنشر، (ب ت)، ص 125-126.

<sup>2</sup> Louis Halphen, Les Barbères. des grandes invasions aux conquêtes turques du XI<sup>e</sup> siècle, rééd. Paris, Librairie Félik Alcan, 1930, p. 374. كتب هذا المؤلف بخصوص: « Geste imprudent, que le calife du Caire, faute de pouvoir agir, venge rageusement en lâchant sur les provinces de l'ouest, en 1052, les bandes sauvages et assoiffées de butin d'une tribu arabe du Nadjd, les Hilal, cantonnés depuis la fin du dixième siècle en Haute Egypte, du côté d'Assouan, et qui vont en quelques années réduire à néant les richesses de l'Afrique du Nord ».

العرب الهلالية بتخريب البنية الاقتصادية والاجتماعية لبلاد المغرب أخذ حيزا هاما في الدراسات التاريخية الاستعمارية كما نلمحه على الخصوص في كتابات المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان (Charles-André Julien) في كتابه العام الموسوم بـ " تاريخ إفريقيا الشمالية: تونس، الجزائر، المغرب منذ الفتح العربي حتى سنة 1830". بالرغم من الترة المعادية للاستعمار<sup>1</sup> التي أبدتها هذا الكاتب فإنه ما لبث أن سقط في فلك الإسطوغرافيا الفرنسية من خلال اتهام العرب الهلالية بتخريب مدينة القيروان و جعل هجرتهم كأهم حدث مأساوي جرى في العصور الوسطى<sup>2</sup>. و هذا الموقف نجد في كتاب " الدين الإسلامي في بلاد البربر" لمؤلفه ألفرد بال (Alfred Bel) عندما يجعل من العرب الهلالية العامل الرئيسي لما آل إليه وضع المغرب و خصوصا فيما يخص تعريب القبائل البربرية<sup>3</sup>.

في كتابه الموسوم بـ " المغرب الأوسط في عهد الزيرين" تطرق الأركيولوجي الفرنسي ليسان غولفا (Lucien Golvin) إلى ما اعتبره نهاية حضارة المغرب الوسيط و حمل القبائل الهلالية مسؤولية الانحطاط الذي حدث من خلال

<sup>1</sup> هذه الترة المعادية للإستعمار نلمسها خصوصا في المقالات التي نشرها المؤلف في مختلف الجرائد التي اشتهرت بمواقف يسارية معارضة للسياسة الإستعمارية مثل *L'Echo d'Oran, La Lutte sociale et le Progrès civique*. هذه المقالات أعد نشرها في كتاب المؤلف بعنوان *Une pensée anti-coloniale, positions 1914-1979*, Paris, Sindbad, 1979.

<sup>2</sup> Charles-André Julien, *Histoire de l'Afrique du Nord: Tunisie -Algérie- Maroc depuis la conquête arabe à 1830*, Paris, Payot, 1931, rééd. revue par R. Le Tourneau, 1975, p. 373.

<sup>3</sup> Alfred Bel, *La religion musulmane en Berbérie esquisse d'histoire et de sociologie religieuse.*, Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1938, vol. I, p. 209.

قطع الطرق و تخريب المزارع و إحداث أثر سلبي على جميع الأنشطة<sup>1</sup>. كذلك تطرق روجي لوتورنو (Roger Le Tourneau) إلى العرب المالالية في محاضرة ألقاها بجامعة برنستون (Princeton University) حيث أتهمهم بطرد السكان البربر من أراضيهم و تحويل النشاط الاقتصادي من زراعي إلى رعوي<sup>2</sup>. في نفس الفترة تقريبا تمت الإشارة إلى تخريب المغرب من طرف المالاليين و هذا في الكتاب العام الذي ألفه غاستون وايت (Gaston Wiet) الموسوم بـ "عظمة الإسلام من محمد إلى فرانسوا"، حيث كتب أن العرب خربوا كل المحاصيل الزراعية و تحطيم البنية الاقتصادية و السياسية لبلاد المغرب، بل إنه تجرأ على شتم العرق العربي و اعتبره مصدر قطاع الطرق و النهابين<sup>3</sup>.

السنقاش الغربي حول أثر الهجرة المالالية في تاريخ بلاد المغرب ظل حبيس المدرسة التاريخية الفرنسية في الفترة السابقة للاستقلال الوطني اللهم إلا تلك الإشارات العابرة في بعض المؤلفات الأنجلو سكسونية و الألمانية مثل ما كتبه نوفيل بربور (Nevill Barbour) حول مسؤولية قبائل بني سليم و بني هلال في تحطيم القيروان و تخريب بلاد المغرب إضافة إلى تعريب المنطقة<sup>4</sup>، و ما كتبه المستشرق الألماني كارل بروكلمان (Carl Brocklman) في كتابه "تاريخ الشعوب الإسلامية

<sup>1</sup> Lucien Golvin, *Le Maghreb central à l'époque des Zirides, recherches d'archéologie et d'histoire*, Paris, Arts et métiers graphiques, 1957, p. 307-314.

<sup>2</sup> Roger Le Tourneau, « North Africa in Historical Perspective » dans *Current Problems in North Africa*, Princeton University Conference, 1959, p. 4.

<sup>3</sup> Gaston Wiet, *Grandeur de l'Islam, de Mahomet à François*, Paris, La Table Ronde, 1961, p. 198-203.

<sup>4</sup> Nevill Barbour, *A Survey of North West Africa (The Maghreb)*, Oxford, Oxford University Press, 1959, p. 18.



" حيث تبني طرح الاستشراق الفرنسي حول هذه المسألة<sup>1</sup>، و أخيرا تلك الأسطر التي كتبها برطولد سبيلاز (Bertold Spuler) في كتابه " عصر الخلفاء " و الذي تتحاشى فيه أي حكم قاس عن آثار الهجرة الهلالية<sup>2</sup>.

إذا كانت الدراسات الاستشراقية الألمانية و الأنجلوسكسونية قد تميزت بنوع من "الاعتدال" في حكمها على القبائل الهلالية فان المدرسة الفرنسية عرفت بعداؤها للعرب و وصف أعمالهم بالكارثة الكبرى التي ضربت بلاد المغرب و قد مثل هذا الاتجاه المؤرخ الهادي روجي ادريس.

الهادي روجي ادريس و " كارثة" الهجرة الهلالية

مع نهاية الربع الأول من القرن العشرين ظهرت سلسلة من الدراسات الاستعمارية حاولت مسح اسم " المغرب " و تعويضه بـ "بلاد البربر" (La Berbérie) و قد دشن هذا الاتجاه جورج مارسسي و تلتة عدة دراسات تبنت نفس الاسم كما رأينا مع ألفرد بال مثلا، لكن الشيء الملفت للانتباه هو ذلك التركيز الذي حظيت به تونس و الشرق الجزائري تحت اسم بلاد البربر الشرقي (La Berbérie orientale) ، و لهذا أنجزت عدة أطروحات جامعية حول هذه المنطقة لدراسة التطور التاريخي للبنية الاجتماعية للمجتمع المغربي. أول هذه الدراسات الجامعية كانت من إنجاز فوندرهيدان (Vonderheyden) بعنوان " بلاد البربر

<sup>1</sup>كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة بنه أمين فارس و منير البعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، ط 10، 1984، ص 319-320.

<sup>2</sup> Bertold Spuler, *The Muslim World, I – The Age of the Caliphs*, traduit de l'allemand, F. R. C. Bagley, Leiden, E. J. Brill, 1960, p. 108.

الشرقي في عهد دولة بني الأغلب" و التي نشرت عام 1924. هذا المؤلف تطرق إلى ظروف ارتباط افريقية الأغلبية بالشرق الإسلامي من خلال دراسة النظم والمؤسسات، بمعنى آخر مقارنة وصفية للمؤسسات دون الخوض في المسائل المطروحة كقضية الازدهار أو الانحطاط المغربي مقارنة مع الفترة الرومانية<sup>1</sup>. في سنة 1940 أصدر المؤرخ و عالم الإسلاميات الفرنسي روبرت برونشفيك (Robert Brunschvig) دراسة كلاسيكية هامة و التي تعد من أهم المرجعيات الأساسية لدراسة العصر الحفصي و هذا بعنوان "بلاد البربر الشرقي في عهد الحفصيين". برونشفيك استغل العديد من المصادر التاريخية و الجغرافية و الفقهية، بل وظف لأول مرة النوازل في كتابة التاريخ و من هنا جاءت أهمية دراسته و التي ترجمت مؤخرا إلى العربية. المؤلف استعمل لأول مرة مصطلح "الكارثة الهلالية" (La catastrophe hilalienne) للتعبير عن رأيه فيما يخص دور الهجرة الهلالية في تاريخ المغرب<sup>2</sup>. برونشفيك أراد معرفة حقيقة ما جرى في السنوات الأولى لوصول الهلاليين لأنه درسهم في فترة متأخرة نسبيا عن الحادثة و لهذا كلف أحد تلامذته بإنجاز هذا البحث في إطار رسالة دكتوراه دولة. فاختار لهذا الغرض الهادي روجي ادريس (Hady Roger Idris) التونسي من أبيه (فقدته في صغره) و الفرنسي من أمه و المتقن جيدا للغة العربية. لدراسة هذا الموضوع بطريقة شاملة قام هذا

<sup>1</sup> M. Vonderheyden, *La Berbérie orientale sous la dynastie des Benoû t-Arlab (800-909)*, Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1924, 344 p.

<sup>2</sup> Robert Brunschvig, *La Berbérie orientale sous les Hafssides, des origines à la fin du XV<sup>e</sup> siècle*, 1940, rééd. Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient Adrien-Maisonneuve, 1982, vol. I, p. 357.

الأخير بتحضير رسالة دكتوراه دولة و ناقشها بجامعة السوربون عام 1958 بعنوان "بلاد البربر الشرقي في عهد الزييرين" و التي نشرت مرتين (1959، 1962) و ترجمت مؤخرا إلى العربية. ادريس نجح في إعداد أهم مرجعية تاريخية حول افريقية في العهد الزييري من خلال تتبع نفس المقاربة الكلاسيكية لأستاذه برونشفيك. و يعد بحق من أهم المؤرخين الأوائل الذين وظفوا المصادر الفقهية في كتابة التاريخ و على الخصوص نوازل البرزلي و معيار الونشريسي. ادريس اشتهر بتأكيد و تعميمه لفكرة " الكارثة الهلالية" من خلال الجزم بأن وصول الهلاليين للمغرب يعد ضربة قاضية لحضارة المغرب لأن هذه القبائل البدوية حربت العمران و أتلفت المحاصيل الزراعية و اغتصبت الأراضي و طردت السكان البربر الأصليين. باختصار فانه يرى بأن الهجرة الهلالية مثلت نهاية العصر الذهبي لبلاد المغرب<sup>1</sup>. هذه الاتهامات الخطيرة للهلاليين أيقظت الأوساط العلمية حول ضرورة البحث عن حقيقة ما حدث.

### التيار الماركسي الفرنسي في مواجهة أصحاب النظرية الكارثية

يعد جون بونسي (Jean Poncet) من أهم المؤلفين الذين اعترضوا على فكرة وصف الهجرة الهلالية بالكارثة التي حلت ببلاد المغرب. بونسي لم يكن مؤرخا بل دخل التاريخ من زاوية جغرافية من خلال بحثه عن أنماط الإنتاج في افريقية. فقد كتب مقالين عامي 1954 و 1961 حول أنماط العيش في تونس

<sup>1</sup> Hady Roger Idris, *La Berbérie orientale sous les Zirides X-XII<sup>e</sup> siècles*, Paris, Adrien-Maisonneuve, 1962, vol. 2, p. 625.

اعتمادا على فكرة مستخرجة من " كتاب العمران " لابن خلدون<sup>1</sup> و تطرق فيهما إلى إشكالية الازدهار و الانحطاط في شمال إفريقيا و هو رد صريح على النظرة الاستعمارية لتفسير تاريخ المغرب الوسيط<sup>2</sup>. بعد طبع و رواج الدراسة الهامة للهادي روجي ادريس حول بلاد افريقية في العهد الزيري و الذي تمت فيه " محاكمة" الهلاليين، قام بونسي بالرد على المؤرخ الفرنسي في مقالين تحت عنوان " أسطورة الكارثة الهلالية " (1967)<sup>3</sup> و " مجددا حول الهلاليين: توضيح الهادي روجي ادريس " (1968)<sup>4</sup>. لقد أعاب بونسي على ادريس تحميل العرب الهلاليين مسؤولية تخريب المغرب و أهمله بالاعتماد على كتابات متأخرة عن زمن الحادثة و على مؤرخين كتبوا لصالح الدول البرجوازية سواء في بحاية أو المهديّة. الهادي روجي ادريس دافع عن آرائه في مقالين صدرتا عام 1968 تحت عنوان " حقيقة الكارثة الهلالية"<sup>5</sup> و " الغزوة الهلالية و نتائجها"<sup>6</sup>، مؤكدا آرائه المعادية للعرب

<sup>1</sup> Jean Poncet. « L'évolution des genres de vie en Tunisie : autour d'une phrase d'Ibn Khaldun » dans *Cahiers de Tunisie*, VI (1954), p. 315-323.

<sup>2</sup> Jean Poncet, « Aux sources de l'histoire nord-africaine : prospérité et décadence ifrîqiyennes » dans les *Cahiers de Tunisie*, t. IX, n° 33-35, (1961) p. 221-243.

<sup>3</sup> Jean Poncet, « Le mythe de la (catastrophe) hilalienne » dans *Annales, Economie, Société et Civilisations*, 22 (1967), p. 1099-1120.

<sup>4</sup> Jean Poncet, « Encore à propos des Hilaliens, la mise au point de R. Idris » dans *Annales Economie, Société et Civilisations*, 23 (1968), p. 660-662.

<sup>5</sup> Hady Roger Idris, « De la réalité de la catastrophe hilalienne » dans *Annales, Economie, Société et Civilisations*, 23 (1968), p. 390-396.

<sup>6</sup> Hady Roger Idris, « L'invasion hilalienne et ses conséquences » dans *Cahiers de civilisation médiévale*, 3, (1968) p. 353-371.

الهلالية و أهم خصمه بونسي بعدم معرفته للمصادر التي تتحدث عن "همجية" القبائل الهلالية.

النقاش الحاد بين ادريس و بونسي توسع مع نهاية الستينات و بداية السبعينات بنشر عدة دراسات حول آثار الهجرة الهلالية و قامت النخبة المغاربية الفرنسية بلعب دور مهم في هذا النقاش.

النخبة المغاربية الفرنسية في مواجهة الطرح الإستعماري

تباينت الردود بشأن مسؤولية العرب الهلالية في سقوط أو اضمحلال حضارة المغرب الإسلامي. فبعد النقاش الحاد بين المؤرخين الفرنسيين جاء دور النخبة المغاربية المثقفة، حيث أصدر المؤرخ المغربي عبد الله العروي كتابا باللغة الفرنسية تحت عنوان " تاريخ المغرب محاولة في التركيب " و فيه قام بمناقشة عدة آراء حول ما كتب بخصوص تاريخ المغرب و دعى إلى تحرير التاريخ من الرقعة الاستعمارية (Décoloniser l'histoire) و هنا أتوقف قليلا حول ما كتب بخصوص مسألة الهجرة الهلالية.

عبد الله العروي تحدث عن ما أسماه بالتفسير الكلاسيكي للهجرة الهلالية والمتمثل في التحدث عن مختلف المعارك التي أجرتها هذه القبائل ضد المعز بن باديس ( حيدران) أو الناصر بن علناس الحمادي (سبيبة)، ثم انتقل للحديث عن تفسير آخر كتبه المعاصرين للهجرة الهلالية مثل ابن شرف القيرواني و نقله عنهم ابن عذاري المراكشي و قام ابن خلدون بتنظيمه. هذه النظرة أخذها عنهم جورج مارسى و غوتيه و الهادي روجي ادريس. العروي يرى بأن هذه النظرة تجعل من الحملة الهلالية نقطة قطيعة في تاريخ المغرب و هذا اعتمادا على بعض آثار الهجرة

من خلال بعض النصوص. فعلى المستوى البشري، فإن قبائل زناتة التي سكنت بالمناطق الرعوية للمغرب الأوسط طردت نحو الغرب، و على المستوى الاقتصادي تحول الاقتصاد من زراعي إلى رعوي، و نتيجة أخرى و هو تخريب المدن و تراجع العمران في الكثير من المدن كالكثروان و قلعة بني حماد و سجلماسة. هذا الوضع الذي أدى إلى تفكك الدولة و سيادة الفوضى نتج عنه احتلال النورمان (Les Normands) لبعض المدن الساحلية لبلاد افريقية. اعتبر العروى هذه النظرة غير محايدة لأنها كتبت بأقلام كتاب البرجوازية المتغلغلة في وسط رجال البلاط المعادي للقبائل الهلالية. الفتاوى التي تتهم القبائل الهلالية و نظام الحكم أصدرت كذلك من طرف برجوازية تجارية. في مقابل هذه النظرة التقليدية اقترح نظرة أخرى تدافع عن الهلاليين من خلال التركيز على الظروف التي عرفتها افريقية قبل مجيء هذه القبائل إليها و على الخصوص المشاكل الدينية المترتبة على التشيع. بمقاربة متأثرة بالأفكار الماركسية تمكن العروى من إعطاء نظرة نقدية و سطحية في نفس الوقت عن المصادر التي كتبت حول الهجرة الهلالية و وضعها في نسق عام تميز بانحطاط العالم الإسلامي في مشرقه و مغربه (سقوط الخلافتين العباسية و الفاطمية، الهجمات الصليبية، الانهزام و التراجع في الأندلس...) و يتطور اقتصادي للغرب الأوروبي الذي حاول السيطرة على حوض البحر المتوسط. لقد انتقد كذلك الفكرة التي نشرها غوتيه حول العلاقة بين البربري المستقر و العربي الهلالي الراحل و اعتبرها من المغالطات الاستعمارية<sup>1</sup>. العروى يرى بأن المغرب عرف الحروب

<sup>1</sup> Abdallah Laroui, *L'histoire du Maghreb. Un essai de synthèse*, 1970, rééd. Paris, Maspero, 1982, p. 140-146.

التي وقعت بين القبائل المؤيدة للفاطميين و المجموعات الموالية لبلاط قرطبة الأموي و التي أدت إلى انحطاط اقتصادي و إلى أزمة ديمغرافية لأن سكان افريقية و المغرب الأوسط لجئوا إلى المغرب الأقصى و هناك حاولوا إقامة إمارات منافسة لأحفاد ادريس بن عبد الله<sup>1</sup>.

النخبة العربية الفرنسية واصلت إبداء رأيها كما هو حال الكاتب سمير أمين السذي سقط في فلك التفسير الاستعماري لظاهرة الهجرة الهلالية فهو يتهم القبائل الهلالية بتدمير الأرياف البربرية التي كانت مزدهرة، و بتخريب أنظمة السقي، و بطرد السكان الأصليين من قراهم إلى الجبال<sup>2</sup>. في نفس الفترة تطرق عبد المجيد دويب في الجزء الذي كتبه ضمن " تاريخ تونس في العصر الوسيط " إلى المسألة الهلالية و اكتفى بالتطرق إلى بعض مخلفات الهجرة الهلالية كتهب القيروان و انتشار الفوضى بإفريقية<sup>3</sup>. فهو إذن يتناول الموضوع بنظرة تقليدية بعيدا عن الطرح الاستعماري.

النخبة المغاربية واصلت خوضها للنقاش حول آثار الهجرة الهلالية، ففي سنة 1974 تطرق المؤرخ التونسي محمد الطالبي إلى الهلاليين في مقال له تحت عنوان " الفقه و الاقتصاد في افريقية في القرن التاسع الميلادي " و التي انتقد فيه أصحاب التفسير الكارثي للتاريخ و اعتبر أن القبائل الهلالية اختتمت عملية تحطيم لاقتصاد كان مريضا قبل وصولهم. عدة إلى المنطقة. ففي نظر الطالبي، الحملة الهلالية

<sup>1</sup> Ibid, p. 129-130.

<sup>2</sup> Samir Amin, *Le Maghreb moderne*, Paris, Les Editions de Minuit, 1970, p. 15-16.

<sup>3</sup> Abdelmajid Douib, « L'Ifriqiya à l'époque ziride » dans *Histoire de la Tunisie, Le Moyen Age*, Tunis, Société tunisienne de diffusion, (s.d.), p. 307-314.

ليست المسؤولة الوحيدة عن هذا الانحطاط و إنما هناك عوامل أخرى ساهمت في ذلك مثل نقص اليد العاملة في المجال الفلاحي بسبب نقص العبيد بعد أن سيطرت القسوى المسيحية على الملاحة المتوسطية. في الأخير يرى هذا المؤرخ التونسي بأن الهجرة الهلالية حولت الاقتصاد المغربي من زراعي و حضري إلى رعوي<sup>1</sup>، و في هذه النقطة يشترك مع النظرة الاستعمارية الفرنسية. محمد الطالبي راجع أطروحته في مداخلته له و هذا بالملتقى الدولي الثلاثين للعلوم الإنسانية بآسيا و إفريقيا الشمالية و الذي انعقد بمدينة مكسيكو من 3 إلى 8 أوت 1976، حيث حدد القرنين العاشر و الحادي عشر الميلاديين كزمن التحولات الكبرى في بلاد المغرب والذي نتج عنه تراجع ملحوظ على المستوى العمراني و البشري بسبب ثورات البربر و على الخصوص حركة أبي يزيد النكاري<sup>2</sup>.

المؤرخ الجزائري عطاء الله دهينة الذي بحث في تاريخ المغرب الإسلامي في عهد دويلات ما بعد الموحدين أعطى رأيه في الموضوع و استعمل لأول مرة مصطلح " تأخر " (Le recul) للتعبير عن ما آل إليه الاقتصاد المغربي في القرن الرابع عشر الميلادي، و قال بأنه من الصعب تحميل عامل معين مسؤولية ما آل إليه الوضع الفلاحي نتيجة تراكم عدة أسباب مناخية منها و سياسية مرتبطة أساسا

<sup>1</sup> Mohamed Talbi, « Droit et économie en Ifriqiya au III/IX<sup>e</sup> siècle » rééd. dans *Etudes d'histoire ifriqienne et de civilisation musulmane*, Tunis, Publications de l'Université de Tunis, 1982, p. 185-208.

<sup>2</sup> Mohamed Talbi, « Effondrement démographique au Maghreb du XI au XV<sup>e</sup> siècle » dans *Cahiers de Tunisie*, XXV, (1977) p. 51-60.



بسيادة الفوضى و انحلال الدول ببلاد المغرب<sup>1</sup>. عطاء الله دهبنة تحرر من الطرح الاستعماري المحمل للعرب الهلالية مسؤولية إسقاط حضارة المغرب.

لقد توسعت دائرة النقاش حول دور القبائل الهلالية لتتطرق إلى الجذور الأولى لمسيرهم لمحاولة فهم ما حدث انطلاقاً من بدايته، و لهذا نجد التونسي راضي دغفوس يقوم بالبحث عن أصول القبائل الهلالية و السليمية و هذا من خلال مقالين. الأول نشر عام 1975 تحت عنوان " أصل بني هلال و بني سليم " و فيه تعرض إلى بعض ما قيل بشأن هذه القبائل قبل أن يتطرق إلى حياتهم في بلاد العرب و دخولهم في الإسلام و أعمالهم حتى رحيل الفاطميين إلى مصر. صاحب المقال ركز على عمليات تخب المسافرين و الحجاج من طرف هذه القبائل<sup>2</sup>. أما المقال الثاني فقد صدر سنة 1977 تحت عنوان " مظاهر الحالة الاقتصادية في مصر عند منتصف القرن الخامس الهجري/منتصف القرن الحادي عشر الميلادي: مساهمة في دراسة ظروف هجرة القبائل العربية (بني هلال و بني سليم) إلى افريقية " حيث أوضح بأن فترة مغادرة القبائل الهلالية لصعيد مصر تزامنت مع الأزمة الاقتصادية التي عرفتها الخلافة الفاطمية سنة 444هـ/1052م. إذن العامل السياسي وحده غير كاف لتفسير الهجرة الهلالية بل يضاف إلى ذلك الظروف الاقتصادية المزرية التي عرفتها مصر الفاطمية و التي أسفر عنها رحيل هذه القبائل بحثاً عن الرزق<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> Atallah Dhina, *Les Etats de l'Occident musulman aux XIII<sup>e</sup>, XIV<sup>e</sup> et XV<sup>e</sup> siècles. institutions gouvernementales et administratives*, Alger, ENAL, 1984, p. 344.

<sup>2</sup> Radhi Daghfous, « De l'origine des Banû Hilâl et des Banû Sulaym » dans *Cahiers de Tunisie*, XXVI, (1975) p. 41-68.

<sup>3</sup> Radhi Daghfous, « Aspects de la situation économique de l'Égypte au milieu du V<sup>e</sup>/milieu du XI<sup>e</sup> siècle : contribution à l'étude des conditions de l'immigration des

## الكتابات العربية بين الوصف والدفاع

الكتابات باللغة العربية حول حضارة المغرب الوسيط تعددت ولكن القليل منها من اهتم بتحليل الظواهر و بيان مراحل تطورها، بمعنى آخر اهتمت بالمحال الوصفي على حساب محاولة الفهم بأسلوب علمي يتماشى مع التطورات التي عرفها علم التاريخ الحديث. سوف لا أشير إلى جميعها بطبيعة الحال وإنما سأقتصر على بعض المنعطفات الكبرى للكتابات التي تطرقت إلى مسألة انحطاط المغرب الوسيط.

ففي كتابه الموسوم بـ "العلاقات بين بني زيري و الفاطميين و أثرها في تاريخ ليبيا" تطرق مراجع عقيلة الغنای إلى الصحرة الهلالية و حملها مسؤولية انحطاط بلاد المغرب:

" و قد ترتب على دخول جحافل العرب هذه إلى افريقية نتائج خطيرة سياسية و اجتماعية و اقتصادية و بشرية وثقافية... هذه القبائل حرقتها السلب و النهب، و سلاحها السيف و الرمح... أصيبت البلاد بداء فأنك ومرض عاصف، دمار للعمران كبرقة و أجدابية و سرت واطرابلس و شتت أهلها و سلبت أملاكهم<sup>1</sup>."

tribus arabes (Hilāl et Sulaym) en Ifrîqiya » dans *Cahiers de Tunisie*, XXV, (1977) p. 23-50.

<sup>1</sup>مراجع عقيلة الغنای، العلاقات بين بني زيري و الفاطميين و أثرها في تاريخ ليبيا، طرابلس، مطابع وزارة الإعلام، 1968، ص 82.

عندما نقرأ هذه الأسطر يتبادر إلى الذهن بأن صاحبها هو غوتيه أو جورج مارسى، لكن لا الأول و لا الأخير له صلة بهذه الأسطر. إن كاتب هذه الأحكام القاسية ضد عرب بني هلال هو كاتب عربي تأثر بالكتابات الاستعمارية الكلاسيكية التي نسجت معالم تفسير كارثي للمجرة الهلالية. مراجع عقيلة الغنای ليس الوحيد الذي تأثر بمدرسة الاستشراق الفرنسي بل نجد آخرون و خير مثال على ذلك أحمد بن عامر في كتابه الموجه للجمهور العريض تحت عنوان " الدولة الصنهاجية صفحة من العصر الذهبي للحضارة التونسية "، و هو الكتاب الذي جعل فيه صاحبه من المجرة الهلالية الحدث المعبر عن انتهاء حضارة زاهرة<sup>1</sup>. نفس النظرة نجدها في كتاب " تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول " الصادر سنة 1974 لمحمد الهادي العامري أين تحدث هذا الكاتب عن العرب الذين عاثوا في الأرض فسادا و عن لجوء بقايا البربر إلى الجبال كعادتهم<sup>2</sup>.

مع محمود إسماعيل في كتابه " الخوارج في المغرب الإسلامي " (1970) تمت إثارة عامل آخر من عوامل اضمحلال حضارة المغرب بماركسية مدافعة عن القبائل البربرية الفقيرة ضد " البرجوازية " العربية حاول المؤلف أن يعطي لنا مجموعة من العوامل المساهمة في تخريب الاقتصاد المغربي إلى جانب ثورات البربر الخوارج، لكن المؤلف ما لبث أن سقط في فلك الطرح الاستعماري و المتمثل في حتمية أفول

<sup>1</sup> أحمد بن عامر، الدولة الصنهاجية صفحة من العصر الذهبي للحضارة التونسية، تونس، الدار التونسية للنشر، 1972، ص 35-38.

<sup>2</sup> محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار و الذبول، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، 1974، ص 138-139.

حضارة المغرب مقارنة مع الفترة السابقة للإسلام<sup>1</sup>، بمعنى آخر قامت الدراسات الاستشراقية بإعطاء نظرة أسطورية لما سمي بمخزن روما من الحبوب (Le grenier de Rome) والذي انتهى بسبب "غزو" العرب للمنطقة. نظرة محمود إسماعيل لا تختلف كثيرا عن تفسير مؤرخ مصري آخر وهو حسن إبراهيم حسن في كتابه "تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب و مصر و سورية و بلاد العرب" عندما حمل ثورة أبي يزيد المختبب مسؤولية تخريب عمران بلاد المغرب و إلى عرب بني هلال عملية القضاء على الحضارة القيروانية المزدهرة<sup>2</sup>.

مع نهاية السبعينات و بداية الثمانينات ظهرت مجموعة من الدراسات تخص السلالة الحمادية على أساس أنها معاصرة للهجرة الهلالية. أولى هذه الدراسات عبارة عن رسالة ماجستير نوقشت بجامعة عين شمس عام 1975 و نشرت عام 1980 تحت عنوان "دولة بني حماد صفحة مشرقة في تاريخ الجزائر" للمصري عبد الحليم عويس، و هي الدراسة التي ركزت على دراسة النتائج السياسية للهجرة الهلالية و أثرها على الحكم الحمادي. لقد نجى الحماديون من السقوط بعد أن توغلت القبائل الهلالية في بلاد المغرب حسب رأي هذا المؤلف<sup>3</sup>. في الحقيقة تعتبر دراسة عويس وصفية و تقليدية مدافعة عن العروبة الممزوجة بالإسلام في قالب

<sup>1</sup> محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي، بيروت، دار العودة، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1976، ص 202-203.

<sup>2</sup> حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب و مصر و سورية و بلاد العرب، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1964، ص 92، 254. تجدر الإشارة بأن هذه الدراسة تعتبر قديمة، فهي في الأصل رسالة دكتوراه باللغة الإنجليزية نوقشت بجامعة لندن عام 1928.

<sup>3</sup> عبد الحليم عويس، دولة بني حماد صفحة مشرقة من تاريخ الجزائر، بيروت، دار الشروق، 1980.

إيديولوجي بعيدا عن روح النقد العلمي للمصادر التاريخية. الدراسة الثانية جمعت بين التاريخ العام و الأركيولوجيا و هي من إنجاز رشيد بوروية تحت عنوان " الدولة الحمادية تاريخها و حضارتها " و هي الدراسة التي تجاهل فيها صاحبها النقاش الدائر حول أثر المجرة الهلالية و اكتفى بذكر أهم الأحداث التي واكبت دخول قبائل بني هلال إلى المغرب الأوسط<sup>1</sup>. و أخيرا نجد كتاب " دولة بني حماد ملوك القلعة و بجاية " لإسماعيل العربي حيث حاول فيه الدفاع عن العرب من خلال التفريق بين كلمة عرب و كلمة أعراب ليصب غضبه على الأعراب بمعنى القبائل الهلالية وفق النظرة الاستعمارية، فقد نسب إليهم تخريب العمران و دخولهم في حروب ضد البربر المستقرين ممثلين بصنهاجة ثم بزناة<sup>2</sup>.

مع بداية الثمانينات ازداد الاهتمام العربي بالمسألة الهلالية من خلال صدور مجموعة من الدراسات. فقد خصص حسين مؤنس فصلا كاملا للمجرة الهلالية في كتابه " معالم تاريخ المغرب و الأندلس " معتبرا بأن القبائل الهلالية خربت بلاد المغرب لكنها ساهمت بعد ذلك في بناء حضارته و تعريب المنطقة و خلق توازن بين القبائل البربرية<sup>3</sup>. السيد عبد العزيز سالم ذهب أبعد من ذلك عندما ترجم حرفيا ما أتى به مارسلي حول نتائج المجرة الهلالية و المتمثلة أساسا في انحسار ملك

<sup>1</sup> رشيد بوروية، الدولة الحمادية تاريخها و حضارتها، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1977، ص 54—55.

<sup>2</sup> اسماعيل العربي، دولة بني حماد ملوك القلعة و بجاية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1980، ص 153—160.

<sup>3</sup> حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب و الأندلس، الفجالة، دار مطابع المستقبل، 1980، ص 155—156.

السلالات الصنهاجية، و تحريب عمران و حضارة بلاد المغرب، و تعريب البلاد و انقسام بلاد المغرب إلى دول و طوائف على نحو ما حدث في الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية<sup>1</sup>. تأثر بعض الدراسات العربية إلى حد كبير بتيارات الاستشراق الفرنسي جعل بعض المؤرخين تحت لواء إيديولوجيات مختلفة يحاولون إعطاء تفسير جديد أو البحث عن أضواء جديدة حول الهجرة الهلالية كما فعل كل صباح إبراهيم الشخيلي في مقالها "الهلاليون في المغرب، ضوء جديد حول أثر هجرهم" (1982)<sup>2</sup> و ممدوح حسين في مقاله "العرب الهلالية في افريقية و دورهم في الحروب الصليبية" (1981). هذا الأخير ركز على الدور العسكري لهذه القبائل و اعتبرها المنقذ الرئيسي لبلاد المغرب من الخطر الصليبي<sup>3</sup>. إعادة الاعتبار أو إعطاء دور أكثر أهمية للقبائل الهلالية بدا بارزا في رسالة الدكتوراه التي ناقشها و نشرها مصطفى أبو ضيف أحمد عمر تحت عنوان "القبائل العربية في المغرب في عصر الموحدين و المرينيين" الذي أقر بالدور السياسي و الاقتصادي الهام الذي لعبته القبائل العربية في تاريخ المغرب<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج 3: العصر الإسلامي، دراسة تاريخية و عمرانية و أثرية، بيروت، نار النهضة العربية، 1981، ص 671-673.

<sup>2</sup> صباح إبراهيم الشخيلي، "الهلاليون في المغرب، ضوء جديد حول أثر هجرهم" المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، ع 70-71، (1982) ص 7-26.

<sup>3</sup> ممدوح حسين، "العرب الهلالية في افريقية و دورهم في الحروب الصليبية" الكراسات التونسية، XXIX، (1981)، ص 73-90.

<sup>4</sup> مصطفى أبو ضيف أحمد عمر، القبائل العربية في المغرب في عصر الموحدين و المرينيين، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص 332-338.

إبراز الدور الإيجابي و أحيانا تفيخيمه و إهمال الجوانب السلبية للمهجرة الهلالية ارتبط بمرور التيارات القومية العربية و على الخصوص في زمن الرئيس المصري جمال عبد الناصر التي رأت في الدفاع عن العرق العربي هدفا أساسيا للمؤرخ، و لهذا نجد أن أغلب هذه الدراسات ينقصها الجانب العلمي و المنهجي في الكتابة التاريخية الحديثة. كما أن بعض الدول العربية عينت مؤرخين رسميين لإعادة كتابة ماضيها كما فعل الملك الحسن الثاني عندما نصب عبد الوهاب بن منصور، صاحب قاموس القبائل المغربية، مؤرخا رسميا للبلاط الملكي.

بعد تراجع النقاش في الغرب حول أثر المهجرات في تحطيم الحضارات، قل الاهتمام كذلك بالمهجرة الهلالية ببلاد المغرب على أساس أن النقاش أصبح عقيما لعدم توفر مصادر تاريخية جديدة تخدم الموضوع. فيما يخص الكتابات العربية، التاريخ السلالاتي قتل إلى حد كبير المقاربات الهامة التي تحدد الفترات الكبرى للتحولات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية طالما أن الباحث يحكم على موضوع دراسته بالازدهار أو الركود أو حتى الانحطاط إن تعلق الأمر بالحركات الاحتجاجية المسلحة. ففي كتابه " دولة الأدارسة في المغرب — العصر الذهبي 172—788/223—835 " حمل سعدون عباس نصر الله البربر الخوارج مسؤولية تخريب النسيج العمراني لبلاد المغرب، في حين نسب إلى الأدارسة عملية إحداث ازدهار ملموس بعد تأسيس دولتهم<sup>1</sup>. هذه النظرة الجزئية و العاطفية مع التشيع الإدريسي نجد ما يماثلها و هو التحيز للمرابطين في كتاب " أضواء جديدة

<sup>1</sup> سعدون عباس نصر الله، دولة الأدارسة في المغرب — العصر الذهبي 172—788/223—835، بيروت،

دار النهضة العربية، 1987، ص 137—138.

على المرابطين " لعصمت عبد اللطيف دندش، فهو يعطي الشرعية لأمراء الحركة المرابطية على حساب الحماديين و الهلاليين متهما إياهم بإلحاق أضرار جسيمة ببلاد المغرب<sup>1</sup>. في كتابه الموسوم " الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم " يصور لنا عز الدين عمر موسى نموذج آخر من السقوط في فلك الكتابة التاريخية المصنوعة في البلاط الموحد، و هذا عندما يعتمد على نص ابن صاحب الصلاة، أحد الموظفين المتعصبين لحركة ابن تومرت، و الذي يريد أن يقنعنا بأن العرب الهلاليين عاثوا فسادا في افريقية إلى غاية توجيه طاقاتهم لخدمة الأمة من طرف عبد المؤمن بن علي و أحفاده<sup>2</sup>.

بقاء التردد حول دور الهجرة الهلالية في تخريب حضارة المغرب الوسيط بدا جليا في بعض الدراسات العربية التي أنجزت خلال السنوات العشر الأواخر، و خير مثال على ذلك ما كتبه الباحث التونسي صالح بعيزق في رسالة دكتوراه قدمها أمام جامعة تونس الأولى عام 1995 تحت عنوان " بجاية في العهد الحفصي دراسة اقتصادية و اجتماعية " و التي عبر من خلالها عن موقفه من يحيى الهلاليين إلى بلاد المغرب، موقف غير بعيد عن النظرة الاستعمارية السالفة الذكر، فهو يعتبر هزيمة الحماديين في معركة سببية انتصار للبداءة على حياة الاستقرار و هو ما أدى إلى تغيير البنية الاجتماعية لبلاد المغرب، كما أدى هذا الجحيم إلى فرار السكان من

<sup>1</sup>عصمت عبد المجيد دندش، أعضاء جديدة على المرابطين، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1991، ص 73

74.

<sup>2</sup>عز الدين عمر موسى، الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم و نظمهم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1991، ص 51-52.



المناطق الداخلية و استقرارهم بالمناطق الساحلية، بمعنى آخر طرد هؤلاء البدو للسكان البربر الأصليين من ممتلكاتهم، و هذا لا يختلف كثيرا عن أفكار مارسلي. بعيزق يرى بأن تحول الاقتصاد المغربي من زراعي إلى رعوي هو ناتج عن ازدياد طلب التجار الأوروبيين لتلبية حاجيات الصناعة الغربية من الجلود و الصوف، فهو يتقاسم نفس النظرة المعبر عنها من طرف المؤرخين الاستعماريين حول تغلب الرعي على الزراعة في بلاد المغرب الوسيط لكن يختلف معهم حول السبب في ذلك<sup>1</sup>.

الطرح الاستعماري الفرنسي حول مسألة انحطاط حضارة المغرب الوسيط و إلقاء مسؤولية ذلك على العرب الملاحين أثار إذن عدة ردود فعل من طرف النخبة المغاربية و العربية الفرنسية منها و المعربة، لكن السؤال المطروح هو ما مدى تقبل المدارس الاستشراقية الأخرى للنظرة الفرنسية الاستعمارية؟

مايكل بروت رائد الإنصاف الاستشراقي اتجاه العرب الملاحية

تقليديا تاريخ بلاد المغرب الوسيط كان حكرا على المدرسة الفرنسية وهذا لارتباط قسم كبير من الاستشراق الفرنسي بالاستعمار في الفترات السابقة. لكن بعد استقلال بلدان المغرب اهتم بعض المستشرقين الألمان و الإيطاليين و الأسبان والإنجليز بتاريخ المغرب الوسيط. سأشير فقط إلى دراستين الأولى بالإيطالية والثانية بالألمانية و في الأخير أركز على الاستشراق الإنجليزي الذي كان له دور أساسي في تجديد الدراسات الغربية الخاصة بالمغرب الوسيط.

<sup>1</sup> صالح بعيزق، بحاية في العهد الحفصي دراسة اقتصادية و اجتماعية، رسالة دكتوراه، جامعة تونس الأولى، 1995، ج 1، ص 53، ج 2، ص 363.

في سنة 1973 أصدر دافيد أبولافيا (David Abulafia) مقال بعنوان "النشاط التجاري الجنوي في افريقية النورمانية: مدينة طرابلس" حيث بين فيه نشاط الحركة التجارية بالمنطقة، و أهم فيه القبائل الغلالية بتخريب افريقية و انحاز بذلك إلى أصحاب الأطروحة الكارثية<sup>1</sup>. بعده بقليل أصدر المؤرخ الألماني مارتين فورستنار (Martin Forstner) دراسة هامة حول المغرب الأوسط حيث تعرض فيها إلى أسباب و نتائج الهجرة الغلالية و اتحد في الأخير موقفا مغايرا للنظرة الكارثية<sup>2</sup>. المساهمات الإيطالية و الألمانية حول الموضوع لم تعرف النجاح الذي أنجزه الاستشراق الإنجليزي ممثلا في المؤرخ المعروف مايكل برات (Michael Brett) الاختصاصي في تاريخ افريقية في العهدين الفاطمي و الصنهاجي و صاحب العديد من المؤلفات الهامة كان آخرها *The Rise of the Fatimids, The World of the Mediterranean and the Middle East in the Fourth Century of the Hijra, Tenth Century C E* (2001)<sup>3</sup>.

مايكل برات أنجز رسالة دكتوراه حول العرب الغلالية بالقيروان ثم و سع دائرة أبحاثه لتشمل ليبيا و بلاد الزاب، و قام بنشر مقالاته ابتداء من سنة 1979 بصدر مقال له تحت عنوان "ابن خلدون و تعريب إفريقيا الشمالية"<sup>4</sup> لتليه أربع

<sup>1</sup> David Abulafia. « L'Attività commerciale genovese nell'Africa normanna : la città di Tripoli » dans *Atti del Congresso Internazionale di Studi sulla Sicilia Normanna*, Palermo, 1973, p. 1-8, rééd. dans *Commerce and Conquest in the Mediterranean, 1100-1500*, Londres, Variorum Reprints, 1993, n° IX.

<sup>2</sup> Martin Forstner, *Das wegenetz des Zentralen Maghreb in islamischer*, Wiesbaden, Otto Harrassowitz, 1979, p. 81-83.

<sup>3</sup> Leyde-Boston-Köln, Brill. 2001, 497 p.

<sup>4</sup> Michael Brett, « Ibn Khaldun and the Arabisation of North Africa » dans *The Maghreb Review*, IV-1, (1979) p. 9-16.

مقالات مهمة حول الهجرة الهلالية منها<sup>1</sup> "الكتابة التاريخية الفاطمية: دراسة حالة الجدل مع الزيرين" (1982) و "هجرة البدو" (1995). مايكل برات أوضح بأن الهجرة الهلالية لم تكن السبب الوحيد في تدهور حضارة بلاد المغرب و اعتبر ما قيل بشأنها ما هو إلا أسطورة صنعتها الكتابات الأوروبية لخدمة الإدارة الاستعمارية الفرنسية، لسبب بسيط حسب رأيه و هي أن بلاد المغرب ظهرت بما علامات الوهن و السقوط مع بداية العهد الصنهاجي نتيجة الحروب المدمرة و التي أدت إلى إحداث أزمة ديمغرافية و اقتصادية و سياسية. كما انتقد بالخصوص غوتيه و مارسي حول حتمية الصدام بين البربري المستقر و العربي الراحل. و بهذا فان مايكل برات أصبح رائد التيار الاستشراقي المناهض لفكرة تحميل القبائل الهلالية مسؤولية القضاء على جميع جوانب الحياة في بلاد المغرب.

كتابات مايكل برات دعمت التركة المناهضة للطرح الاستعماري، فقد ظهرت مجموعة من الدراسات في عدد من البلدان الغربية. ففي بداية الثمانينات كلفت المنظمة العالمية للثقافة و العلوم (Unesco) المؤرخ المغربي محمد الفاسي بالإشراف على كتابة الجزء الخاص بالحقبة الوسيطة من مشروع "التاريخ العام

<sup>1</sup> Cf. Michaci Brett, « Arabs, Berbers and Holy Men in Southern Ifriqiya 650-750h/1250-1350 Ad» dans *Cahiers de Tunisie*, 29, (1981) p. 533-559 ; id, « The Flood of the Dam and the Sons of the New Moon » dans *Mélanges offerts à Mohamed Talbi à l'occasion de son 70<sup>e</sup> anniversaire*, Manouba, 1993, p. 55-67, rééd. dans *Ibn Khaldoun and the Medieval Maghreb*, Sydney-Ashgate, Variorum Reprints, 1999; id. « The Way of the Nomad » dans *Bulletin of the School of The Oriental and African Studies*, 58, (1995) p. 251-269, rééd. dans *Ibn Khaldoun. Le cas ifrîqien et tripolitain étudié par M. Brett* dans « Ifriqiya as Market for Saharan Trade from the Tenth to the Twelfth Centry A. D » dans *Journal of African History*, X, 3 (1969), p. 347-364 a été revu par une étude de David Abulafia, *op. cit.*

لإفريقيا " و تولى المؤرخ التشيكي ايفان هربك (Ivan Hrbek) بإعداد مقال مطول حول الفاطميين أين تطرق إلى الحجرة الهلالية و أبدى رأيه في القضية على ضوء آخر الدراسات في هذا الموضوع. المقال صدر سنة 1990 و فيه نجد أن النظرة " الكارثية " قد دفنت على مستوى المنظمة العالمية. اليونيسكو تبني إذن أفكار التيار " المنصف " للدور التاريخي للقبائل الهلالية، بل إن المؤرخ التشيكي يفضل الحديث عن " تغلغل " بدل " غزوة " القبائل الهلالية لبلاد المغرب. الشيء الوحيد الذي أيد فيه المؤرخين الاستعماريين هو قضية الإقرار بدور العرب الهلالية في تحويل النشاط الفلاحي لبلاد المغرب من زراعي إلى رعوي<sup>1</sup>. النظرة المعبر عنها في " التاريخ العام لإفريقيا " لا تختلف كثيرا عن ما توصل إليه المؤلف الايطالي ميشال بروندينو (Michele Brondino) في كتابه " المغرب الكبير: الأسطورة و الواقع " حيث هاجم فيه بشدة الكتابات التاريخية الاستعمارية و أشاد بالجيل الشاب من المؤرخين المغاربة الذين عملوا على تحرير تاريخ بلادهم من شوائب الاستعمار، ليعطي نظرتهم في الموضوع و هو أن أزمة المغرب لم تبدأ مع وصول الهلاليين في منتصف القرن الحادي عشر و إنما الأزمة حدثت في القرن الرابع عشر الميلادي نتيجة الصراع بين الأسر الحاكمة لهذه المنطقة من جهة و الهجومات النصرانية من جهة أخرى<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> Ivan Hrbek, « L'avènement des Fatimides » dans *Histoire générale de l'Afrique*, Paris, Unesco/Nea, 1990, vol. III, p. 342-363.

<sup>2</sup> Michele Brondino, *Il Grande Maghreb : Mito e Realita*, traduit en français par Yvonne Fracassetti Brondino, *Le Grand Maghreb : mythe et réalités*, Tunis, Alif, 1990, p. 28-34.

في مقال لها صدر سنة 1992 بـ "حاوية الدراسات العربية" حول النشاط الاقتصادي في بلاد المغرب الوسيط، تطرقت ماريا فيديازوف (Maria F. Vidiasov) إلى قضية الانخراط الاقتصادي لبلاد المغرب في نهاية العصر الوسيط من خلال تعرضها بالنقد لبعض الدراسات التي صنعت نظرة سكونية للمجتمع المغربي مبنية على علاقات بين بعض المدن و على أرياف منغلقة على نفسها. فيديازوف اتهمت الحكام المسلمين بسوء التسيير وإهمالهم لدورهم اتجاه الرعية، وكذلك احتكارهم للتجارة الراجحة البحرية منها و الصحراوية. باعتبارها على عدد من كتب الجغرافية، تطرقت هذه المؤلفة إلى تنوع الإنتاج الفلاحي في بلاد المغرب الوسيط و الذي لا يختلف كثيرا عن الفترة القديمة بالرغم من الأزمات التي واكبت انتقال البنية الاقتصادية من المرحلة البيزنطية إلى الفترة الإسلامية. في الأخير رأت الباحثة بأن القبائل الهلالية لم تكن مسؤولة عن تخريب اقتصاد المغرب، وإنما تراكت عدة عوامل أدت في النهاية إلى انخراط عام لبلاد المغرب ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي<sup>1</sup>.

من جهة عاد المؤرخ البلجيكي جاك تيري (Jacques Thiry) إلى إثارة النقاش حول دور العرب الهلالية في انخراط حضارة بلاد المغرب و هذا من خلال مقال صادر عام 1998 تحت عنوان "مصر و انخراط إفريقيا الشمالية"، حيث انتقد فيه الكتابة التاريخية الأوروبية و الفرنسية منها على الخصوص لتحميلها القبائل العربية مسؤولية تخريب بلاد المغرب. تيري رفض فكرة الكارثة الهلالية و نصب

<sup>1</sup> Maria F. Vidiasov, « Le Maghreb médiéval : mercantilisme parasitaire ou société productrice » dans *Anaquel de Estudios Arabes*, 3, (1992) p. 241-246.

نفسه في حالة المنصفين بقيادة بونسي و برات. و لتعليل نظرتة، اقترح هذا المؤرخ البنيحيكي عوامل أخرى لتفسير ظاهرة الانحطاط أولها العمليات البحرية البيزنطية ابتداء من منتصف القرن العاشر الميلادي و التي أدت إلى توقيف " القرصنة" الإسلامية و هذا ما أدى إلى النقص في عدد الرقيق البيض و بالتالي الأيدي العاملة في الميدان الزراعي و الحرفي. العامل الثاني هو ثقل الضرائب الملقاة على عاتق السكان من طرف الفاطميين و من بعدهم البادسيين و هذا ما أدى بالفئة النشطة وخصوصا التجار بالمحجرة إلى المشرق، و أخيرا دور مصر من خلال محاولة التوسع في بلاد المغرب و ما نتج عنها من تحالف قراقوش الغزي مع الميورقيين و بعض القبائل اهلالية ضد النظام الموحد في المغرب الأوسط و افريقية و الذي أدى في الأخير إلى تخريب العمران. من خلال دراسة أوضاع منطقة طرابلس في نهاية القرن الثاني عشر خرج جاك تيري بتيحة و هي أن اعطاط بلاد المغرب لا يمكن ربطه بأي نظام حياة أو أي عرق أو مجموعة اجتماعية و إنما الإنسان عبر عدة مراحل<sup>1</sup>.

كما رأينا فان أغلب الدراسات الاستشراقية خصوصا الإنجلوسكسونية منها تحررت من النظرة الاستعمارية، فهل الكتابات الفرنسية المعاصرة تبعتها في ذلك؟

<sup>1</sup> Jacques Thiry, « L'Egypte et le déclin de l'Afrique du Nord XI-XII<sup>e</sup> siècle » dans *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamlouk Eras*, Leuven, Vitgeverij Peetens, 1998, p. 237-248.

## ترددات الكتابات الفرنسية المعاصرة

باستثناء المهادي روجي ادريس المتوفى سنة 1978 لم تعرف المدرسة التاريخية الفرنسية المعاصرة متخصصين كبار في تاريخ المغرب الوسيط. الاستشراق تراجع باستقلال الدول المستعمرة من جهة و من جهة أخرى نتيجة الدور الذي لعبه كلود كهان (Claude Cahen) في توجيه أغلب الدراسات إلى الاعتناء بالمشرق الإسلامي. جمهور الاستشراق الفرنسي المعاصر غير هو الآخر عن رأيه حول ما كتب بشأن تحميل القبائل الهلالية عملية تخريب بلاد المغرب، لكن في الغالب حمل ما كتب لم يكن إلا ردود فعل أو مواقف معبر عنها اعتمادا على دراسات سابقة.

ففي سنة 1968 أصدر الجغرافي كرافبي دو بلانول (Xavier de Planhol) كتابا بعنوان "الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام" حيث تطرق فيه إلى أسباب تخريب المغرب و أرجعها إلى التغيرات المناخية و إلى القبائل الهلالية<sup>1</sup>. في نفس السنة أصدر أندري ميكال (André Miquel) كتابه الموسوم "الإسلام وحضارته" و عبر فيه عن موقفه بشأن الهجرة الهلالية و التي حملها مسؤولية تراجع نظام الدولة و سيادة حكم القبائل و كذلك الانهيار الاقتصادي لبلاد المغرب<sup>2</sup>. برؤية أوسع و صل أشهر المستشرقين المنضوين تحت لواء مدرسة الحوليات (Ecole des annales) و هو موريس لومبار (Maurice Lombard) إلى نتيجة مفادها بأن

<sup>1</sup> Xavier de Planhol. *Les fondements géographiques de l'histoire de l'islam*, Paris, Flammarion, 1968, p. 140-143.

<sup>2</sup> André Miquel, *L'Islam et sa civilisation VII-XV<sup>e</sup> siècle*, Paris, Armand Colin, 1968, p. 197-198.

الغزوة النورمانية و الهجرة الهلالية قامتا بفصل الغرب الإسلامي عن بلاد المشرق، وهذا في كتابه " المنسوجات في العالم الإسلامي من القرن السابع إلى القرن الثاني عشر " <sup>1</sup>. بعده بقليل و بمنهج مغاير تناول جاك بارك (Jacques Berque) إشكالية الهجرة الهلالية في مقال له تحت عنوان " من جديد حول بني هلال " و فيه اتقد الكتابات الاستعمارية التي اعتمدت على ابن خلدون في توجيه أصابع الاتهام للهلاليين بحكم أن هذا الأخير كتب بمدة طويلة بعد الحادثة من جهة و تنظيره البعيد عن الواقع التاريخي من جهة أخرى. جاك بارك اقترح دراسة نتائج الهجرة الهلالية حسب حالة كل منطقة مع تحليل دقيق للتحويلات السياسية و الاجتماعية وهذا للخروج بنتيجة شاملة و علمية <sup>2</sup>.

بعد غياب دام عدة سنوات خرج الهادي روجي ادريس عن صمته و كتب مقالا مطولا لم يكتب له القدر أن يراه مطبوعا كونه نشر بعد فترة قصيرة من وفاته. الدراسة نشرت بعنوان " المغرب من المرابطين إلى السيطرة التركية " (1979) و فيها دافع المؤلف عن نظراته السابقة من خلال تأكيده بأن الهجرة الهلالية زرعت الخراب و الفوضى في بلاد المغرب <sup>3</sup>. و تعتبر ما نشره غريال كمبس (Gabriel Camps) من آخر ما كتب من طرف الجيل القديم من

<sup>1</sup> Maurice Lombard, *Les textiles dans le monde musulman du VII<sup>e</sup> au XII<sup>e</sup> siècle*. Paris-La Haye-New York, Mouton et EHESS, 1978, p. 77.

<sup>2</sup> Jacques Berque, « De nouveau sur les Banî Hilâl » dans *Studia Islamica*, XXXVI, (1972) p. 99-111.

<sup>3</sup> Hady Roger Idris, « Le Maghreb des Almoravides à la domination turque » dans *Regierung und Verwaltung des vorderen orientis in Islamischer Zeit*, teil 1, Leyde, E. J. Brill, 1979, p. 1-16.



المستشرقين الفرنسيين، و هذا في مقال له نشر سنة 1983 تحت عنوان " كيف تحولت بلاد البربر إلى المغرب العربي " و الذي ذكرنا فيه بالطرح الاستعماري عندما اتهم القبائل الهلالية بتعريب الأرياف و تدمير النسيج الاجتماعي والاقتصادي لبلاد المغرب<sup>1</sup>. نجد تقريبا نفس الرؤية عند مؤلف فرنسي آخر و هو بول لويس كمبوزا (Paul-Louis Cambuzat) في كتابه الذي نشر في الجزائر تحت عنوان "تطور مدن التل في افريقية من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر" والذي اعتبر فيه " الغزوة" الهلالية بأنها شكلت قطيعة في تاريخ مدن التل الإفريقي أكثر مما فعله الفتح الإسلامي. نفس المؤلف أضاف بأن "الغزوة" الهلالية أوقفت بشكل عنيف حضارة مدن المغرب إلى غاية العهد الحفصي أين تشكلت من جديد<sup>2</sup>.

بعد وفاة الكثير من رموز الجيل القلم في الاستشراق الفرنسي و تحول اهتمام الجيل الجديد إلى البحث عن ماض بلاد المشرق باعتبارها مهد الدين الإسلامي تراجع الاهتمام الفرنسي بظاهرة الحجرة الهلالية اللهم إلا تلك الإشارات التي قام بها بعض الباحثين ضمن تعرضهم للعلاقات الاقتصادية بين المدن البحرية الغربية و موانئ المغرب. ففي مقاله " أمالفي و تونس في العصر الوسيط " الصادر سنة 1999 تطرق إيمانويل ريفيرسو (Emanuele Riveroso) إلى الحجرة الهلالية وحملها مسؤولية الخطاط التجارة مع مدينة أمالفي (Amalfi) الإيطالية بعد أن

<sup>1</sup> Gabriel Camps, « Comment la Berbérie est devenue le Maghreb arabe » dans *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*, 35 (1983-1), p. 7-24.

<sup>2</sup> Paul-Louis Cambuzat, *L'évolution des cités du Tell en Ifriqiya du VI<sup>e</sup> au XI<sup>e</sup> siècle*, Alger, Offices des publications universitaires, 1986, vol. 1, p. 152-153.

أقدمت تلك القبائل على تقريب المزارع و الأرياف<sup>1</sup>. من جهته تطرق برنار بومار (Bernard Boumerc) إلى إشكالية الخطاط المغرب و هذا في كتابه " البندقية والإمارة الحفصية (1231-1553) " حيث اعتبر القرن الخامس عشر بمثابة فترة ازدهار السلطنة الحفصية في حين مثل القرن السادس عشر مرحلة الانحطاط: و هي نظرة تقارب ما توصلت إليه بعض الدراسات من أن الانحطاط كان في السنوات الأخيرة للحفصيين<sup>2</sup>.

هنري برسك (Henri Bresc)، المؤرخ الفرنسي المتخصص في تاريخ صقلية في العهد النورمان، نشر مقالا عن " مملكة النورمان بإفريقية و أسقفية المهديسة " (1998) حيث توصل فيه إلى عدة نتائج من بينها أن الصحرة الهلالية قضت على أنشطة الأرياف و عزلت المدن الساحلية و أحييت التنظيمات القبلية وهذا ما أدى إلى انتشار الفوضى بالمنطقة<sup>3</sup>. دائما في إطار الدراسات حول العلاقات بين بلاد المغرب و الموانئ الغربية، أشير إلى رسالة دكتوراه لدمنيك فاليريون (Dominique Valérian) حول علاقة ميناء بجاية بموانئ البحر المتوسط والتي بين فيها بطلان النظرية الاستعمارية لتفسير انحطاط حضارة المغرب الوسيط حيث أكد أنه لم تحدث قطيعة في تاريخ المغرب بسبب الصحرة الهلالية و لا انحطاط

<sup>1</sup> Emanuele Riverso. « Amalfi et la Tunisie médiévale » dans *Cahiers de Tunisie*. 178, (1997) p. 11-28.

<sup>2</sup> Bernard Boumerc, *Venise et l'émirat hafside de Tunis (1231-1535)*. Paris. L'Harmattan. 1999, p. 45.

<sup>3</sup> Henri Bresc, « Le royaume normand d'Afrique et l'archevêché de Mahdiyya » dans *Le partage du monde : échange et colonisation dans la Méditerranée médiévale*. (s/d M. Balard et A. Ducellier, Paris, Publication de la Sorbonne, 1998, p. 347.

في القرن الحادي عشر و إنما أزمة في القرن الرابع عشر و التي انتهت في القرن الخامس عشر<sup>1</sup>.

بالرغم من نشر الكثير من الدراسات التي راجعت النظرة الاستعمارية حول دور العرب الهلالية في انحطاط حضارة المغرب الوسيط فان أغلب جمهور الاستشراق الفرنسي من غير المتخصصين يعتمد أساسا على الهادي روجي ادريس و بالتالي النظرية الكارثية في التعريف بتاريخ المغرب سواء للقراء من عامة الناس أو لطلبة ما قبل التدرج. فمن النوع الأول أشير إلى كتاب " الإسلام و الحضارة الإسلامية " لجورج بيروني (Georges Peyronnet) الصادر سنة 1992، و الذي نسب للعرب الهلالية تدمير الاقتصاد المغربي و تعطيل الطرقات و القضاء على الدول القائمة و إحداث عدم توازن اجتماعي<sup>2</sup>، و كتاب " الإسلام و البحر " الذي صدر سنة 2000 لمؤلفه كسافيي دو بلانول (Xavier de Planhol) و الذي لم يغير مواقفه التي عبر عنها في كتابه الذي سبقته الإشارة إليه عندما اتهم العرب الهلالية بتخريب المدن الداخلية و طرد البربر نحو الساحل<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> Dominique Valérian, *Bougie, port maghrébin à la fin du Moyen Age (1067-1510)*, Thèse de doctorat nouveau régime, Université de Paris I, 2000, p. 209, 230, 375, 633.

<sup>2</sup> Georges Peyronnet, *L'Islam et la civilisation islamique VII-XIII<sup>e</sup> siècle*, Paris, Armond Colin, 1992.

<sup>3</sup> Xavier de Planhol, *L'Islam et la mer, la mosquée et le matelot VI<sup>e</sup> - XX<sup>e</sup> siècle*, Paris, Perrin, 2000, p. 158-160.

الكتابات من النوع الثاني نجدتها متعددة من بينها كتاب "العالم المتوسطي من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر" لبياتريس لوروا (Béatrice Leroy)<sup>1</sup> وخصوصا كتاب "دول الإسلام من القرن السابع إلى القرن الخامس عشر" لآلان ديسوليبي (Alain Ducellier) و فرانسواز ميشو (Françoise Micheau)<sup>2</sup>، وهذه الكتب ليست بأبحاث وإنما مطبوعات موجهة للطلبة لتحضير مسابقات الكفاءة، لكن ما نلاحظه هو تبنيتها للطرح الاستعماري كما نلاحظه في هذه الجملة المقتطفة من الكتاب الأخير:

"الغزوة المعروفة بالهلالية ظهرت بأنها كارثية مع التخريب الكامل للقيروان و أغلب المدن الأخرى و على الخصوص تدمير الأرياف بالكامل"<sup>3</sup>.

الكتابات الاستعمارية حول تاريخ المغرب الوسيط ما زالت اذن تشكل مرجعية مهمة للفرنسيين المعاصرين، و لا نكاد نجد أثر ملموس لتيار الاستشراق المنصف اتجاه الهجرة الهلالية اللهم إلا تلك الكتابات المحدودة للمؤلفين المحسوبين على تيار اليسار مثل ايف لاکوست (Yves Lacoste) في مقاله "من التاريخ القديم إلى الاستعمار: تاريخ مضطرب" الصادر سنة 1991 حيث كتب قائلا حول أسطورة الغزوة الهلالية:

<sup>1</sup> Béatrice Leroy, *Le monde musulman du VII<sup>e</sup> au XIII<sup>e</sup> siècle*, Paris, Ophrys, 2000, p. 87.

<sup>2</sup> Alain Ducellier et Françoise Micheau, *Les pays d'Islam, VII<sup>e</sup> - XI<sup>e</sup> siècle*, Paris, Hachette, 2000, p. 95.

<sup>3</sup> *Ibid*, p. 95.

" يرى عدد من المؤرخين الأوروبيين الذين عاشوا في الفترة الاستعمارية بأن القرن الحادي عشر شكل في تاريخ المغرب مرحلة حاسمة، و هي مرحلة اجتياح الرحل العرب، ظاهرة تقارن بغزو جنكيز خان أو تيمرلنك لآسيا... هذه الأطروحة ليس لها أسس تاريخية صلبة، لكنها مكنت من القول بأن الاستعمار الفرنسي كان بالنسبة للبربر المستقرين وسيلة لاستعادة السهول و معارضة العرب و الرحل المخربين<sup>1</sup>."

#### الخاتمة: نحو رؤية شاملة لقضية الانخطاط

منذ أزيد من قرن و نصف ظهرت إذن مجموعة من الدراسات لدراسة ظاهرة انخطاط حضارة بلاد المغرب و التي نسبت في أغلب الأحيان إلى القبائل الهلالية. الاختلاف في وجهات النظر راجع من دون شك إلى عدة عوامل و هي الغاية من كتابة التاريخ و الخلفية الفكرية للمؤلف، و تطور مفهوم التاريخ و مناهجه و تعدد تياراته، و تنوع المصادر التاريخية و طريقة استعمالها و أخيرا نظرة المؤلف إلى موضوعية المصادر التاريخية.

فيما يخص الخلفية، لم يعد يخف على أحد بأن تاريخ العالم نظر إليه من زاوية أوروبية، و هي النظرة المتميزة بالمركزية و المستعلية على الثقافات المعاصرة لها. و ما العصور الوسطى إلا وعكة صحية لحضارة إنسانية واحدة غربية بطبيعة

<sup>1</sup> Yves Lacoste, « De l'Antiquité à la colonisation, une histoire mouvementée » dans *L'Etat du Maghreb*, Paris, La Découverte, 1991, p. 42.

الحال نشأت مع السلت و استمرت مع اليونان و الرومان و عادت من جديد في ثوب النهضة ثم التنوير ثم الثورة الصناعية. النظرة الاستعمارية الفرنسية حاولت جر البربر إلى فلك هذه الحضارة من خلال اتهام العرب بفصلهم عن الحضارة و جرهم إلى ظلام و بدوأة الجزيرة العربية. و جاءت أولى الكتابات حول تاريخ المغرب في هذا الاتجاه، بمعنى كتابة التاريخ لخدمة المشروع الثقافي الاستعماري الذي أراد صناعة تاريخ وفق منظوره. في مقابل هذا كان رد فعل القومية العربية عشوائيا من خلال الدفاع الأعمى عن منجزات العرق العربي بمحاسنه و مساوئه و بالتالي مناقضة الأطروحة الاستعمارية من أساسها. و الآن جاء دور أجهزة الإعلام أين الكثير من الباحثين لا يوالون اهتمام لتناجهم العلمية بقدر إرضاء الجمهور لكسب مكانة عالية لديهم على حد تعبير الكاتب الفرنسي فرنسيس بال (Francis Balle). و من هنا نفهم إصرار كاتب مثل كزافيي دو بلانول على إرضاء القارئ و المستمع الفرنسي بحكاياته عن الهلاليين و دورهم في إحداث قطيعة في تاريخ المغرب.

منذ الكتابات الأولى حول الهجرة الهلالية مر علم التاريخ بعدة مراحل، كل مختلفة عن سابقتها في المقاربة و المصادر. فالكتابات الفرنسية الأولى حول تاريخ المغرب تأثرت إلى حد كبير بأقطاب التيار الوضعي من أمثال ميشلي (Michelet) في كتابه " تاريخ فرنسا " و كذلك جل الباحثين المنضوين تحت لواء " المجلة التاريخية " (La Revue historique)، هذا التيار قدم نظرة " حديثة " للتاريخ بالاعتماد على المصادر التقليدية خصوصا بمعنى كتب التاريخ الحولي (Annales et chroniques)، و هذا ما أدى بأوائل المؤرخين الفرنسيين إلى الاعتماد على كتب ابن الأثير و ابن خلدون و نقل ما فيهم لصنع في الأخير أسطورة بعيدا

عن حقيقة ما جرى في بلاد المغرب. مع سيطرة مدرسة الحوليات و بروز الماركسية المهتمة و المدافعة في نفس الوقت عن "عامة" المجتمعات ظهرت إلى الوجود مجموعة من الدراسات تطعن في مصداقية ما تحمله المصادر الأدبية من معلومات، و من هنا أثير التسائل حول من و لمن كتب التاريخ، بمعنى آخر هل يمكن الاعتماد على كتابة تاريخية من صنع "الرجوازية" و الحاشية الحاكمة في كتابة تاريخ "الضعفاء"؟ بطبيعة الحال جملة من التساؤلات أدت إلى الوقوع في جدال بين أصحاب النظرة التقليدية للتاريخ و أصحاب المفهوم الجديد في الدراسات التاريخية.

بعد التأثير الكبير الذي لعبته البنيوية (Le structuralisme) و أخيرا العلوم الاجتماعية كالأنثروبولوجيا (Anthropologie) هناك إمكانية الدراسة الشاملة لإشكالية إحداث الهجرة الهلالية لأزمة أو انعطاف عام لحضارة المغرب الوسيط وفق نظرة شاملة و متفتحة بعيدا عن الخلفيات و الأحكام المسبقة<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> أنظر مساهمتنا حول دور الهجرة الهلالية من خلال دراسة العهد الحمادي:

Aïlaoua Amara, « Retour à la problématique du déclin économique du monde musulman médiéval : le cas du Maghreb hammadide (XI-XII<sup>e</sup> siècles) » dans *The Maghreb Review*, 28-1, (2003), p. 2-26.

